



الإنسان بين المادية والاسلام

تأليف الأستاذ محمد قطب

عرض وتعليق

للاستاذ حسين عبد الفتاح سويني

حالة ما نشر في العدد الماضي

« إن الإنسان في آفاته العليا، كائن له إرادة حرة، وكيان مستقل، صحيح نله إرادة بمحدها الصالح العام، وكماله المستقل، بخضع أقدار من الإشراف يتحقق به في النهاية صالح الفرد ذاته بتحقيق صالح المجموع، ولكن الفرد في المجتمع الحر له رأى لى تكييف هذا الصالح العام، وفي طريقة تنفيذه. رأى حر يتشاور فيه الناس علانية، دون خوف من سلطان الدولة... ونجس الرقباء... والفرد حر في مشاعره التى لا تؤذى غيره، بصوغها كما يشاء كيانه، وبنيته النفسية الخاصة، حر في طائفته الشخصية التى يتطاربها إلى الحياة والكون في حدود الإطوار الذى يتحرك فيه الجميع، متعاونين غير متصارعين، وحر في اختيار العمل الذى يناسبه ويشعر أنه ميسر له »

« وإن إنكار حق الفرد الممتاز في القيادة والتوجيه لجرمة مزدوجة، فهو أولاً يبدد طاقة بشرية من نوع نادر ممتاز كان يمكن أن يستفيد بها المجموع لو أتيحت له الفرصة المناسبة، وهو كذلك يظلم هذا الفرد حين بماء له معاملة الأفراد الماديين، بدعوى المساواة المطلقة بين الجميع، فطالما أن الناس مختلفون في طاقاتهم الفردية، واستعداداتهم الجثمانية والفكرية وللنفعية فدعوى المساواة المطلقة خرافة سخيفة »

وهذه صورة نائفة للإنسان في وضعه السوى رسمها له الإسلام

« النظام الصالح هو الذى يوازن بين الفرد ومصلحه، وبين صفته الكونية له، كفرد مستقل، وعضو في جماعة، كما يوازن بين الجيل الواحد والأجيال المتعاقبة في نطاق الإنسانية الشاملة الرحية

« إن مجرد الإسلام يعطى العلم حصانة من الاعتداء على كرامته الإنسانية، وحقه للبشرية، وأنه حين بكرم للفرد إنما بكرم المجتمع بأكمله »

وهل كانت الفرد إلا ذرة في المجتمع الذى يعيش فيه ؟

« لذلك يرى الإسلام حماية شديدة بكل فرد على حدة، لأنه الوحدة التى ينشأ المجتمع من اجتماعها بفقرها من الوحدات،

« المجتمع حاجة نفسية، تنبعث من نفس الفرد، من رغبة ملحة في ألا يعيش وحده، وسواء كان الخوف، والشه، وبالوحشة ألام الحيوانات المفترسة، وقوى الطبيعة المجهولة، أو كانت المصلحة حين وجد كل فرد أنه يستطيع أن يدرك بالاشتراك مع غيره، مالا يستطيع أن يدرك وحده، أو كانت غريزة الجنس، أو نزعة التقطيع، فالنتيجة الأخيرة واحدة، وهى أن نزعة لا تقهر، وهى التى أنشأت المجتمع من ضمير للفرد... »

« وقد كان أسراً طبيعياً أن يكون المجتمع الأول في أضيق نطاق ممكن، وأبسط صورة ممكنة : أسرة : زوج وزوجة وأبناء. فتلك أول مجموعة يمكن أن تغلب فيها نزعة الاجتماع، على النزعات الفردية المستقلة، وتخضعها لسلطانها بأى طريق. وهذا تلك القهضة، سارت الأسرة، وهى الوحدة بدلا من الفرد، ومع أن الفرد ظل محتفظاً بكيانه، كشخصية مستقلة، إلا أنه، قدما كتعب في الوقت ذاته صفته الأخرى، كعضو في جماعة، ولم يعد في طوقه أن يحسر أو يفكر أو يعمل إلا بعفتيه في آن واحد » هذه صورة يمرض عليك فيها حاجة الفرد إلى المجتمع الذى يعيش فيه، ولا يمكن أن يكون مستقلاً بذاته، غنيا بفرديته. تقابلها صورة أخرى حين يراد للفرد أن يخضع لنزعة الجماعة إلى آخر الذى، على حساب فرديته وذاتيته، في الدول الدكتاتورية أو الشيوعية

واللهبة التي يقوم عليها البناء »

وحينا يتحدث من الجريمة والعقاب، يقارن بين الأمم، التي
تقدس حرية الفرد وتعتبر أن المجتمع هو المسئول عن جرائم أفرادها،
والأمم ذات النظم الجماعية « التي تبالغ في الخط من قيمة الفرد
ولا تنترف له بكيان مستقل فتفسد تبعا لذلك في الحكم على
جرائمه ». والإسلام الذي يوائم بين الفرد والجماعة فلا يعمل
مع الفرد على حساب الجماعة . ولا مع الجماعة على حساب الفرد .
وإليك قوله فيه

« أما الإسلام فله رأيه في الجريمة والعقاب ، بفرد به بين
نظم الأرض ، ويمسك فيه بميزان العدالة المطلقة بقدر ما يمكن
أن يتحقق في دنيا البشر — فلا يسرف في تقديس حقوق الجماعة
ولا يسرف في تقديس حقوق الفرد وذلك تبعا لنظريته
التوازنية التي ينظر بها إلى الناس ، لا من واقعهم الأرضي المحدود
ولا من زواياهم التضاربية ، بل ينظر إليهم من أعلى ، من السماء ،
فيرام كلهم في لحظة واحدة ، بنظرة واحدة شاملة . . . فحينذاك
لا يبدو فردا وجماعة منفصلين متقابلين ، بل يبدوون وشائج
متصلة ، وملاقات متداخلة ، لا يمكن فصل بعضها عن
بعض »

« والإسلام لا ينظر للجريمة بين الجماعة فحسب ، بل يمسك
الميزان من منتصفه ، فينظر إليها كذلك وفي ذات الوقت بين
الفرد الذي تقع منه الجريمة

فهو حين ينظر إليها بين الجماعة فيقرر حقها ، في حماية
نفسها من الجريمة ، ويفرض لذلك العقوبات ، ينظر إليها كذلك
بين الفرد ، فيرى مبرراته ودوافعه لارتكاب الجريمة ، فيمتدح
بها ، ويعطيها حقا الكامل من التقدير والرحمة ، ويعمل
على إزالة كل الدوافع الموقوفة ، قبل أن يفرض العقوبة »

وحينا يتعرض للمشكلة الجنسية ، يتعرض تعرض الرجل
لتجريح بطبيعة الجسد ، المليم بطبائع النفوس ، فلا تقوته رغبة
من رغبات الجسد ، ولا نزعة من نزعات النفس ، ولا رأى
من الآراء إلا حمله ليأخذ منه الصواب ؛ ويدع الخطأ أو يبدى
رأيه المستقل حين لا يتفق برأى من الآراء . كل ذلك في أسلوب
ساحر ، وحساسية مرهفة ، وحمور طلق رحيب ، وعقل باحث

منقب ؛ يتمتع بك المادة فتشمر بحرارتها وتقلها ؛ وينطلق بك
طائرا في روحانية شفيفة ، تخبأ الآفاق ، وترتاد العوالم ، تسمع
معه همس الخور في قصور النور ، أو مناجاة الجنيات في ظلمها
المحور

استمع إليه حينما يبين العلاقات بين الجنين في أسلوبه
الشيق العالي

« إن الرجل في حاجة إلى المرأة ، والمرأة في حاجة إلى الرجل
لشيء آخر غير ضرورة الجسد ، ودفعة الغريزة ، إن كلا منهما
ليجد عند الآخر ، وفي رعايه (مشاعر) نفسية . الألفة والحنان
والود . والتماطف . مشاعر لا يجدها في أى مكان آخر ، لا يجدها
الرجل كاملة عند الرجل ، ولا المرأة عند المرأة

« إن كلا من الجنين في حاجة إلى فرد من الجنس الآخر ،
يلقى إليه نفسه كلها . مشاعرها ، وأفكارها ، وينكشف له من
كل أمراره الدفينة ، ويتجاوب معه ويتماطف ، ويمجد منه حافزا
وهونا لمواجهة الحياة ، وتبمايتها المختلفة

« وإن الدنيا كلها لتتفتح لقلبين متحابين متكافئين ،
ولا تتفتح لقلب واحد محروم من الحب والعطف ، مقطوع من
الألفة المذبة ، ولو كان أكبر قلب لأعظم إنسان ، بل هو لن
يكون قلبا كبيرا ، وهو محروم من غذائه الطبيعي ، الذي
لا تنفص الحاجة إليه

« وتلك وقائم . قد يفتح الشعر في تصويرها ، في عالم
المثل والأحلام ، ولكنها بشرى شمر ولا فن ، وقائع علمية تشهد
بصحتها الحياة كلها منذ فجرها إلى اليوم »

الله . ماذا يمكن أن يقول قائل أروع من هذا . وهل في
الشعر أو النثر ما يبادل هذه الروعة ، التي تأمر الأبواب ، وتأخذ
بجميع القلوب ؟!

ثم استمع إليه وهو يتحدث عن شعور الحرمان ، لتحس
معه أنت أيضا بشعور الرجل المحروم من الطفل ، أو المرأة
المحرومة منه ، وكيف تقابل طبيعة كل منهما هذا الحرمان

« وقد يجد الرجل أحيانا هملا ، أو فكرة يفرق فيها نفسه
ليسكت هذا الهاتف الملح ، والحنين الملهوف للطفل ، ولكن المرأة

الحب الطاهر الطائر البرى ، وينفلك من افح الجحيم ، إلى نفع
النعم في خفة ورشاقة ، وبراعة وإبابة ، ودقة وأناقة

وحينا يتحدث عن القيم العليا ، ويسائل منكرا ، أو يستفهم
مستذكرا لما يقوله العلماء التجريبيون ، يشمرك معه بالسخرية
الحارة مما يقولون :

« هل القيم العليا كلم خرافة ، والمشاعر النبيلة كلها أوهام ؟
« هل كانت عبثا كل دعوة الأنبياء والمصلحين ، وكل محاولة
لهذه الطباع البشرية ؟ وهؤلاء العظماء من كل لون وفي كل
باب الذين ضحوا بصالحهم لصالح الإنسانية ، الذين استمعوا على
دعاء الشيطان ، واستمعوا لمئات الضمير ، الذين أقاموا أنفسهم
مشلا ربيعة للمدل والزراعة والرحمة والتعاطف ، والاعتداد
بالكرامة ، والإيمان بالإنكار العليا والجهاد في سبيلها . هل
كانوا كلهم خرافة ؟ »

أبو بكر . ومهر . وطى . وأبو عبيدة . وأبو ذر . ومهر بن
عبد العزيز ... وأخنا تون . وفاندى . وبودا وغيرهم وغيرهم ..
كلهم أوهام ؟ »

ثم انظر إليه بعد ذلك وهو يمزق تلك الصورة القذرة . التي
رسمها فرويد للإنسانية ، ليلوث بها كل جميل في مشاعر البشر ،
ويهوئ للإنسانية إلى درك سحيق من الانحطاط والتردى .
وكيف يرد عليه من نفس كلامه ويمسك بتلابيبه ، ويبضيق عليه
الغناق حتى لا يستطيع جوابا

« قتلت الإنسانية أبها الأول ليستمتع الأولاد بأهمهم في
شهوة جنس دنس مسحور ، ولكنهم ما كادوا يصنعون ذلك ،
ويرون إياهم جثة هامدة ، حتى اعتراهم الندم على فعلتهم الآثمة »
وهنا يأخذ الرجل من لسانه كما يقول :

« من أين يأتي السمور بالدم لهذه الحيوانات الهائجة ، التي
تنصرف بدافع الحيوان ؟ من الذى أوحى إليهم أن حملهم هذا
كان خطأ لا يجوز ؟ إننا هنا أمام سمور إنسانى يفرق بين
الإنسان والحيوان

فهذا السمور على الجريعة ، يؤكد وجود الحاسة التي تفرق بين

ما أقمى حياتها بغير طائل ! إن الطفل جزء من المرأة حقا مجازا ،
جزء من جسدها تحملها ، وتغذيه من دماها ، ثم من لبنها وهو ،
خلاصة دماها ، وجزء كذلك من كيائها النفسى ، بحيث نشعر
أنها معلقة ، أو ناقصة ، أو عاجزة ، إذا لم تأت بنسل »

وحينا يتحدث عن الإحساس الجنى ، يبين لك ألوانه
ودرجاته ، ألوانه برشة الفنان البدع ، ودرجاته بمقاييس الماطفة
الدقيقة ، فيشمرك بحرارة الجسد حينما تنفذه الرغبات العارمة
الحارة ، وإطلاقات الروح حينما تنفصل من قيود المادة ، وتنطلق
في عالم الصفاء واللطيف

« هناك الشهوة العارمة التي تتمثل في الجسد الهائج ،
والجوارح الظالمية ، والدميون التي تطل منها الرغبة الهائجة المبهوتة
وهناك الشهوة الهادئة المتدبرة ، التي تعد المدة في ترتيب
وأناة ، حتى تظهر بما تريد على مهل ودون استعجال

وهناك الأشواق الحارة المثيرة ، التي تذهب من الجسد ،
ولكنها تمر في طريقها على القلب فيصفيها من بعض ما بها من
(المكاره) أو يمطيها قسطا من الماطفة تخرج بصيغة الجسد
الملهوف

وهناك الأشواق الطائرة الرفرفة التي تنبث من القلب ،
وقد تمر في طريقها على الجسد فيمنحها بعض لهيبه المحرق وقد
يختلط بها بعض المكاره ولكنها نخل مجتذبة بكثير من الصفاء
وهناك إشراقة الروح الحاملة ، وقد صفت من المكاره كله ،
وصارت صفاء مطلقا ، لا يعرف الجسد ، وإشعاعا لا تعرف
القيود ، تمتشق الجمال خالصا حتى من الإطار الذى يصب فيه
« وهناك ألوان أخرى لا تدركها الأنفاس ، ولا يقدر
عليها التعبير »

« وبين هذه الألوان المختلفة مئات من الأحاسيس ، تشترك
في الأصل ولكنها تختلف فيما بينها أشد الاختلاف
فأى كسب للإنسانية في أن تقول مع القائلين « كله في النهاية
جنس »

أرأيت كيف يدرج بك من نيران الرغبة المثيرة إلى أنوار

الكليسة ، وحالهم وهم بنى عنها

« إذا كانت المسيحية لأسباب سياسية وتاريخية ، قد انتشرت في رقعة كبيرة من الأرض ، فإنها مع ذلك لم تطبق تطبيقاً عملياً ، وإنما بقيت في حدود الكليسة ، لا تبسط من طلبها على الأحياء إلا وهم خاشعون في صلاتهم ، يحمون الترانيل الساحرة ، والصلوات المؤثرة ، فإذا انطلقوا بعد ذلك إلى أعمالهم انطلقوا إليها بشراً لا مسيحيين ، لا يدير أحدهم خده الأيسر لمن أطمعه على خده الأيمن ، ولا يقلع أحدهم عينه ، ويلقيها عنه لأنها تمته ، ولا يرضى بأن يهلك عضواً واحداً من أعضائه ، تكفيرا من إثم من الآثام »

ثم اسمع إليه وهو يسخر من الشيوعيين الذين لا يرون الأخلاق قيمة ذاتية — إنما هي أشياء ابتدعها الراسخون — ولا يرون في الجريمة الجفائية جرعة ، لأنهم مضطرون ، إلى إطلاق القطيع على سجيته . وإذن فأين الجريمة ؟

« الجريمة الكبرى في الدولة الشيوعية ، الجريمة التي تنفق لها الدماء ، وتهدد الحساب هذا ، هي انتقاد النظام الشيوعي أو التعرض للإله الأكبر « باباستاين » أو أحد من الآلهة السابيين وخاصة الإله — لنين — فقدست أرواحهم ولهم الأسماء الحسى — عند ذلك ينقضون جميعاً على هذا الجرم الأثيم — فيسرعون به إلى المشقة إن أرادوا به الرحمة أو ينفون في تلوج سيريا . إذا أريد له العذاب ، وعندئذ تخرج الصحف الروسية . مفاخرة مباهية ، بأن الدولة قد قامت بحركة تطهير ، لحياة النظام »

وفي الكتاب من هذه اللذات كثير

وبعد — فهذا الكتاب رحلة شائقة إلى ينابيع الحقيقة ، وسفرة مهدونة إلى مناهل المعرفة . صاحبه شاعر بارع . علاوة على أنه كاتب عمق ، وبأسلوب الشاعر وتحفيق الكاتب أخرج هذا الكتاب

مبين عبد الفتاح سويني

ما ينبغي ، وما لا ينبغي أن يعمل ، وبين ما هو خير ، وما هو شر ، حاسة تقدر قبا ذاتية للأعمال ، بصرف النظر عن الدافع الفرزي الذي يدفع إليها »

هذه واحدة

« ثم نظر الأبناء فيما بينهم ، فوجدوا أن أحداً منهم لن يفوز بأمه . إلا إذا قتل الآخرين ، وإذن فاستنشا معركة عنيفة ، لا تؤدي إلى تحقيق المصلحة المنشودة ، فاتفقوا بينهم على أن يتكروا أمهم لا يحسب أحدهم منهم ، وينصرفوا راشدين متآخين بدلا من أن يقتلوا فيقتلوا خامرين »

« وهذه هي الثانية

« شعور إنساني آخر . شعور التآخي على مصلحة عامة ، بدل الأنانية القائمة والصراع المزدول »

وإنما ساق هذا القول من أقوال فرويد ، ليبين أن الإنسانية في أوضاعها الأولى ، يوم كانت على قفارتها : لم تهذبها تعاليم الرسل ، ولا آراء المصلحين ، ولا عقول المفكرين . كان فيها اعتماد فطري ، لأن تقدم على الإنثم ، وأن تعمل على تحقيق النفع المشترك ، وأن تنفر من التنازع والخساص

وقبل أن انتهى من هذه الكلمة ، أحب أن ألفت النظر إلى أسلوب المؤلف اللاذع الساخر ، حينما يريد أن يسخر برأى من الآراء أو يفند قولا . ولكنها السخرية التي تجري فيها الحكمة ، ويظهر فيها الأزان . ومع ذلك فهو يرغمك على أن تضحك ، وتفرق في الضحك ، مع أنك مع كتاب جاد رصين

فانظر إليه وتحيل معه حالة البشرية ، لو أنتم نفذت كلام تعاليم المسيحية ، واعتزلت في الصوامع والأديرة

« أي كارثة كانت تصيب الإنسانية ، لو أن الناس كلهم قد اعتزلوا في الصوامع والأديرة ، فانقطعت الحياة بانقطاع النسل ووقف التقدم البشري كله بانصراف الرغبة عن الحياة الدنيا ، إطاعة لأوامر السماء »

ثم اسمع إليه ، وهو يصور لك حالة المسيحيين داخل حدود